«العروبة السياسية ونظام القيم الحضارية»
«الرجولة السلوكية فى تقاليدنا التاريخية»

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« سوف أظل عربيًا .

نعم يا بنى سوف أظل أردد هذه الكلمة وأدعو إلى هذه القناعة حتى لو انفض من حولى الجميع ، إنها ليست فقط صوت القدر ولكنها إعلان عن طبيعة التطور الذى تعيشه أمتنا ، منذ قرابة نصف قرن من الزمان ، ولا نزال نعيش فى بدايته ، ما هى وظيفة المحلل السياسى؟ أن يبحث وينقب ليكتشف حقيقة المتغيرات التى تحيطه ومسار تفاعلات تلك المتغيرات ، وعندما يكتشف الحقيقة الخفية التى لا تراها العين المجردة العادية والتى لا يفهمها إلا من وهبته الطبيعة[1] إمكانات معينة صقلتها الخبرة والتجربة من جانب ، والمعرفة من جانب آخر ، فيصير واجبه أن يدفع بالتطور نحو ذلك المصير الذى فرضته القوة العليا وجوهرالأشياء ، ليس هذا تواكلاً واستسلامًا ، ولكن هذا هو علم السياسة فى أدق معانيه ، وأخص خزئيات منطقه المتكامل ، أليس هذا هو المحور الوحيد الذى تلتقى حوله الماركسية فى تقاليدها الفكرية ، والمدارس الغربية فى مفاهيمها الوضعية ؟

العروبة يا بنى هى جوهر الوجود السياسى لهذا الجزء من العالم الذى إليه تنتمى . وهى بمعنى القومية ، لا تعود ولا تستمد عناصرها فقط كما يتصور البعض من ذلك

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، فرنسا العدد 102 ، فى 22 نيسان - مايو - 1985 ص 26 وما بعدها .

(1) الطبيعة كلمة مجازية عنى بها المؤلف - رحمه الله - الماديات ، لكن الواهب هو الله ، والعاطى هو الله ، فالطبيعة بمعناها اللغوى لا تعطى ولا تمنع . .

القريب المعاصر ومن أحداث الصدام بين الثورة العربية[1] والخلافة العثمانية فى بداية القرن العشرين التى أعقبتها صراعاتنا المختلفة مع المستعمر الغربى ، ثم المغتصب الصهيونى ، وبواجهتنا واليوم مع « رعاة البقر » القادمين من العالم الجديد ، إنها جوهر التطور الحضارى الذى عاشته المنطقة منذ قرابة عشرين قرنًا ، وهى موجات متعاقبة تارة ترتفع إلى القمة فإذا بها شامخة عنيفة قوية وتارة تنخفض إلى القاع فإذا بها قد تحولت ضعيفة متهاوية تتردد حتى فى أن تعلن عن وجودها ، وهى كما سبق وذكرنا مركبة من حيث طبيعتها ، وهى كذلك ، وهذه ناحية أخرى آن لنا أن نقف إزاءها وقفة تأمل وتحليل ، كلية وشاملة ، **العروبة القومية ليست مجرد علاقة سياسية** إنها نظام متماسك من القيم حيث تندرج تلك العلاقة السياسية كأحد عناصر ذلك النظام من الأخلاقيات والمثاليات . العلاقة السياسية أى كل ما له صلة بالعلاقة بين الفرد أو المواطن والمجتمع القومى الذى إليه ينتمى ، ومنه يستمد وجوده الحضارى فى مفهومنا العربى تنصهر فى بوتقة واسعة من القيم والمثاليات ، هذه البوتقة هى قيم العروبة بحيث لا يمكن فصلها عن ذلك الكل المتكامل بأى دعوى كانت ، **العروبة نظام متكامل** من الأخلاقيات والمثاليات تفترض وتقود إلى مفهوم وإدراك معين من العلاقة السياسية ، فهل يستطيع المفكرون لدينا والمنَظِّرون لعالمنا السياسى الذين تعودوا كلما أطلقنا هذه الكلمة – أى القومية – أن يسرعوا يهرولون نحو «فيشت» و«روسو» وغيره أن يعوا معنى ذلك ليفهموا أن عليهم أيضًا أن يسرعوا ليستعيدوا كتابات «ابن خلدون» و«الفارابى» ويقرؤوا بعناية ودقة خطب «علىّ ومعاوية» ورسائل خلفاء الإسلام ليستطيعوا أن يفهموا معنى هذه العروبة وليربطوا بين العناصر التى منها تتكون فى نسيج واحد من الإدراك الحضارى القادر على أن يتسع ليحتضن واقعنا المعاصر ويحدد مستقبل أمتنا وحركتنا الكفاحية ، والخلاقة ووظيفتنا الحضارية فى الأعوام القادمة ؟

أ – فلنبدأ بأن نتابع نماذج التاريخ القومى المعاصر ، فى خارج الواقع العربى . كيف ظهرت القومية ، وكيف تبلور المفهوم القومى . القومية فى العالم الأوربى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يقول « هانزكوهن » خير من أرّخ للمفهوم القومى والمنظر العالمى لمبدأ القومية: (القومية لا تعود إلى أكثر من النصف الثانى من القرن الثامن عشر) . ويضيف: (القومية لا تتبلور إلا مع الحضارة الحديثة وهى عديمة الصلة بغير تلك الحضارة) هذه الملاحظات مردها فقط الخبرة الأوربية ، **والواقع أن المفهوم القومى يفترض عناصر**

(١) بل الخيانة العربية الكبرى التى كانت تستهدف تمزيق دولة الخلافة بالاتفاق مع الدول الاستعمارية والصهيونية انجلترا وفرنسا وغيرها فى الحرب العالمية (الطريق إلى بيت المقدس) د . جمال عبد الهادى ، دار الوفاء، ج 2 .

ثلاث ليستطيع أن يمارس تفاعلاته السياسية :

أولاً : الثورة على الأوضاع القائمة ؛ لأن المفهوم القومى فى ذاته هو ثورة ، وقد تحقق ذلك مع الثورة الفرنسية حيث تحددت الثورة ضد النظم الإقطاعية .

ثانيًا : التسليم بمبدأ السيادة الشعبية حيث تصير الشرعية مردها الإرادة الكلية الشاملة للجماعة .

ثالثًا : نظام سياسى مركزى حيث تسعى إرادة عليًا لاستيعاب مختلف القوى فى ذلك النظام .

ارتبط المفهوم القومى بهذا المعنى للوجود السياسى بخصائص خمس ، تكون من مجموعها ذلك النموذج المثالى للوجود والتعامل الذى أطلق عليه الفقه الأوربى اصطلاح القومية السياسية .

أول هذه المفاهيم « الحرية القومية » المجتمع القومى حر ، وليس من حق أى مجتمع قومى بأى دعوى كالوظيفة الحضارية أو التقدم الاجتماعى ، أن يسيطر أو يتحكم فى أى مجتمع قومى آخر ، **الحرية القومية** هى الوجه المعنوى لمبدأ القومية السياسية ، ارتبط هذا المفهوم بظاهرة النظم الديمقراطية ، لقد ترسبت فى مفاهيم القرن التاسع عشر علاقة ثابتة بين التحرير السياسى وتأسيس النظم الديمقراطية ، إن مجتمعًا تحكمه أو تتحكم فى مصيره قوى غير قومية لا يمكن أن يعرف الواقع الديمقراطى .

والديمقراطية فى أوسع معانيها هى المحور الحقيقى لاحترام كرامة الفرد أو المواطن ، فالمواطن لا يعتبر حقيقة فاعلة إلا فى نظام يقوم على مفهوم الديمقراطية ، حيث المساواة ترتفع إلى مستوى القاعدة الأساسية المثالية المطلقة للوجود ، وللممارسة السياسية ، الحق فى اختيار النظم والقوانين أى فى وضع القواعد - التى يتعين على المواطن أن يتبعها فى ممارساته اليومية ، يأتى فيكمل هذه العناصر المختلفة لمفهوم القومية ، على أن هذا الحق يرتبط بحق الأغلبية . بمعنى أنه إذا كان من حق المواطن باسم المعارضة المشروعة أن يناقش ويُفند أى قانون يراد اتخاذه ، فمتى صوتت عليه الأغلبية التزمت به الأقلية وأضحى ساريًا أيضًا على المعارضة الرافضة .

هذه العناصر الخمس التى يتكون من حصيلتها المفهوم القومى هى قيم سياسية ، وهى فى التقاليد الغربية تقف فى ذاتها ولذاتها مستقلة عن أى قيم أو أخلاقيات أخرى ، القومية العربية تنطلق من تصور آخر . ورغم أنها تنتهى إلى هذه القيم أيضًا وتسلم بها إلا أن نقطة البداية فى بنائها الفكرى هو أن القيم السياسية جزء من نظام متكامل للقيم والأخلاقيات المثالية ، فما هى تلك المثاليات والأخلاقيات التى تنطلق منها العروبة والتى لابد وأن تقود

إلى المفهوم القومى كنتيجة لازمة لذلك الإدراك المتكامل[1] ؟

ب- القومية فى تقاليدنا وتراثنا هى نظام للحياة ومضمون للسلوك الإنسانى وجوهر للتعامل اليومى ونظرة للوجود . إنها كل ذلك فى آن واحد ولا يستطيع المحلل أن يفهم تلك الأبعاد المختلفة إلا إذا تعمق فى جوهر العروبة كأخلاقيات ومثاليات . فما هو ذلك الجوهر ؟ ، العناصر الأساسية التى يتكون منها الإنسان الكامل فى تراثنا التاريخى والذى منه نبعت جميع مفاهيمنا الحضارية بما فى ذلك تلك السياسية ، نستطيع أن نبلورها حول أربعة عشر عنصرًا متداخلة بحيث أنها تكاد تكون نوعًا من الأوانى المستطرقة ولكنها فى مجموعها تقدم لنا ذلك النسيج المتكامل للأخلاقيات العربية :

أولاً : الرجولة .
ثانيًا : الكبرياء .
ثالثًا : الكرامة .
رابعًا : الوفاء .
خامسًا : الشعور بالمسؤولية .
سادسًا : احترام الآخرين .
سابعًا : حب الآخرين وعدم الأنانية .
ثامنًا : المساواة .
تاسعًا : الاعتدال .
عاشرًا : التطور .
حادى عشر : الإيمان والثقة بالذات .
ثانى عشر : الإيمان بالوظيفة الحضارية .
ثالث عشر : النظرة إلى الحياة الدنيوية على أنها معاناة .
رابع عشر : القدرة على التضحية .

هذه المبادئ الأربعة عشر هى الخلفية الحقيقية التى فرضت مفهوم القومية السياسية فى تقاليدنا العربية . إن القومية رجولة ، إنها تعنى أولاً - وقبل كل شىء آخر- الصلابة فى المواقف والقدرة على تحمل المسؤولية ، والاستعداد للتضحية بالذات مهما كانت النتائج ، إنها مواجهة لموقف حيث لا نصير ولا سند إلا الثقة فى الذات ، إنها رفض للخنوع ، إنها مغامرة غير محسوبة ، إنها إلقاء بالذات فى تيار المجهول حيث لا سند ولا نصير إلا الإيمان بأننا على حق ، إنها تعنى أن المجتمع قد تحول فأضحى كل رجل فيه بطل وكل امرأة فيه رجل وكل منزل فيه قلعة فى مواجهة أولئك الذين لا يريدون إلا الاعتداء واغتصاب الحقوق المشروعة، إنها قصة الحرية الإنسانية ، بلغة الدماء التى تروى الأرض بكرم وسخاء ، والشجاعة والشهامة العربية اعترف بها الخصوم قبل الأصدقاء ، وقصة الحروب الصليبية عامرة بالنماذج .

لذلك فالعروبة السياسية تفرض الاعتدال ، ليس بمعنى التردد فى المواجهة وإثبات القدرة على العطاء ، ولكن بمعنى أن كل عنصر فى الجماعة له نفس الحقوق ، وهكذا تصير

(1) كيف نفكر استراتيجيًا ، لواء . أ ح ، د . فوزى محمد طايل - مركز الإعلام العربى طبعة عام 1997 .

الأفضلية فى الجماعة السياسية ليس مردها الأصل أو الانتماء الطبقى ، فهذه عناصر لا يعرفها المجتمع العربى .

ولكن « التقوى» التقوى كلمة واسعة فضفاضة تعنى الكثير ولكنها فى جوهرها تحدد الاقتراب من الإنسان الكامل ، الذى هو وحده محور مثاليتنا السياسية وغير السياسية ، كل مواطن له حقه فى احترام كرامته ، إذا كانت هناك تفرقة بين العامل ورب العمل أو بين الرجل والمرأة فإن هذا مرده الأساسى هو فقط مبدأ التخصص وتقسيم العمل . كل عضو فى الجماعة له كرامته ، وله حقوقه وهو متساوٍ مع الآخرين ، فى كل ما يتصل باحترام تلك الكرامة .

القومية هى ثورة ، وهى ثورة دائمة ، وفى مرحلة الثورة المرأة لها دورها الذى لا يقل عن دور الرجل وهى لا تملك فقط حقها فى المشاركة بل الالتزام بالمساهمة الفعلية فى أداء الوظيفة المرتبطة بذلك الصراع القومى ، من يريد على ذلك دليلاً فليذهب يتحرى قصة الثورة الفرنسية وقواتها تخرج غازية أوروبا باسم الحرية والإخاء والمساواة وليتتبع قصة القومية الألمانية التى تقف مواجهة ذلك الغزو بصلابة ورجولة لم يعرفها التاريخ المعاصر ، إلا فقط حين تبرز كلمة القومية ، لتسطر أروع صفحات ملحمة الصراع الإنسانى فى سبيل تحقيق ذاته .

ولكن لماذا نذهب بعيدًا وأمامنا التاريخ العربى فى أكثر من نموذج واحد وقد تعود مورخو قوميتنا أن يتناسوه وأن يتصورا أن العبر نستمدها فقط من التاريخ الأوربى ؟ أين صفحات الملحمة العربية التى أعدت لبناء الدولة القومية الأموية؟ ألم تكن النساء اللاتى حققن النصر العربى فى معركة اليرموك عندما أخرجن سيوفهن ليهددن أزواجهن بالقتل لو حاولوا الفرار ؟

القومية رجولة بكل وبأوسع ما تعنيه تلك الكلمة من معانى: قدرة على اتخاذ المواقف، صلابة فى مواجهة الأخطار ، تواضع إزاء الضعيف ، ليست الرجولة تبذلاً وليست عنفوانًا وليست غرورًا بالقوة وليست عنفًا فى التعامل مع غير القوى إنها أيضًا اعتدال ، وهى بهذا المعنى حنان وعطاء ، وهى لذلك صراحة مع النفس واعتراف بالأخطاء ، وهى من ثم انفتاح على الآخرين ، وتقبل لكل ما تقدمه الخبرة من سمو أو تميز ، والتميز فى الرجولة ليس الاستعلاء ، ولكنه التعلم ، وليس الغرور ، ولكن إعطاء كل ذى حق حقه .

هذا الإطار المتكامل للأخلاقيات والمثاليات هو المصدر الحقيقى لمفهوم العروبة السياسية، كتعبير عن مبدأ القومية ، كتفسير للعلاقة بين المواطن والدولة ، وعندما نصل إلى هذه العلاقة نجد أن الترتيب التصاعدى للقيم السياسية التى دون أن تنفصل عن النظام الكلى

للأخلاقيات العربية تأتى فتكمل هذا الإطار للفهم الواعى لإدراكنا ، بالتميز الحقيقى لمفاهيم القومية والعروبة فى تراثنا الذاتى .

العروبة السياسية يجب أن تفرض الترتيب التنازلى فى المبادئ التالية :

أولاً : مبدأ الطاعة لولى الأمر[1] .

ثانيًا : مبدأ التضامن مع الأمة .

ثالثًا : مبدأ التماسك بين جميع أجزاء الجسد السياسى .

رابعًا : مبدأ الجهاد مع خلاف فى تفاصيل جزئيات تطبيقية .

خامسًا : مبدأ السيادة المطلقة للقيم الإسلامية .

وجميع هذه العناصر فى حاجة إلى تفصيل .

جـ- الذى نريد أن نصل إليه من هذا العرض المعقد لمفاهيم قد تبدو مركبة ولكنها واضحة من حيث دلالتها :

أولاً : القومية العربية تنطلق من مفاهيم أخلاقية ، وهذا يفسر منذ البداية لماذا وقفنا وسوف نقف ضد سياسات كامب ديفيد ، ليس فقط لأنها تخالف المصالح العربية ، ولكن لأنها تخرج عن مقتضى أخلاقياتنا ومثالياتنا السلوكية .

ثانيًا : العلاقة بين الإسلام والعروبة ؛ أن الإسلام يقدم المبادئ التى تنطلق منها العروبة؛إنه الروح حيث تعتبر العروبة الجسد والأداة المنفذة لتلك المثالية فى بعض عناصرها.

ثالثًا : القومية العربية تختلف عن كل قومية أخرى . إنها تملك منطقها الذاتى وطبيعتها المتميزة ، بل وتاريخها المستقل .

رابعًا : كذلك فإن القومية العربية لا يمكن أن تنفصل عن عملية إحياء التراث القومى: وجهان لعملة واحدة .

هذا هو منطقنا السياسى : تميز واستقلال وأصالة . وهذه هى حركتنا السياسية : أخلاقيات ومثاليات تنبض بالرجولة وتنطلق من الشهامة والبطولة .

ترى متى تعى قياداتنا هذه الحقائق ؟ ومتى تفهم كيف أن سلوكها الدولى والإقليمى وهى تتحدث باسم هذا المجتمع يجب أن ينطلق فقط من هذه المفاهيم ؟

(1) فى غير معصية لله ولا لرسوله ﷺ .